سعدي الحديثي

عراقيون

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (4625) السنة السابعة عشرة

الخميس (5) آذار 2020

WWW. almadasupplements.com

5-4

سعدي الحديثي

ربابة الفرات العالي

تأملات سعدي الحديثي.. عميقة.. ساحرة ومتماسكة

جاسم المطير

حين انهيت قراءة آخر كتاب، عن قيم غنائية وحقائق موسيقية وحكايات شعبية ، وجدتُ نفسي في أثناء الكتابة عنه، انني امام مهمة شاقة لا يمكن النفاذ الى اصولها او اصالتها إلا من خلال النفاذ الى أصول واصالة كاتبها ومدونها . ظهر لي ان مؤلف كتاب (جذور الغناء في الثقافة العراقية) الدكتور سعدي الحديثي لم يقدم معارف دائبة، يقظة، متحركة ، لتحقيق وجود تراث عراقي غني بمجال الموسيقى والغناء، فحسب، بل انه ابتغى مصارعة قضية من قضايا (الجذور) بالتعمق في حراثة البيئة والارض والزمان والمكان لاكتشاف جزء من اجزاء الحياة الثقافية العراقية وتفسيرها على وفق وجود الابعاد الثلاثية التالية :

١. الغناء ابجدية فردية ناطقة مع الجماعة الشعبية ولها.

٢. الموسيقى حركة مادية روحية تخلق طاقة انسانية.

٣. الحكاية الشعبية مهمة زمنية- مكانية لمعالجة نظام حب وعدل وفرح.

هذه الثلاثية كانت منطلق كتابة ١٥٠ صفحة بقلم أدبي – علمي قدير لتأدية مواكبة ، عميقة، سلسة، عبر موضوعات متممة لثقافة اجيال متعاقبة قادمة الى ساحة الضرورات الموسيقية والغناء والحكايات الشعبية العراقية بصور عدة ، مدنية وبدوية ورويفية. اعترف فيها الباحث عن الواجب الاصيل سعدي الحديثي تناول فيه اغلب القضايا الحيوية حول الوعي العميق بجوهر الاغنية الشعبية العراقية.

ليس مستغربا على سعدي الحديثي قدرته البالغة على متابعة زمنيات الاغنية وانواعها فقد ارهق نفسه، طيلة حياته، بمواكبة تطور اشكالها المتنوعة: (المقام.. الاوبرا.. اغاني الصحراء ..الجوبي – الدبكة ..غناء الملاحم) كما تعاقبت مواهبه في هذا الكتاب على سرد الكثير من حكايات الحب والعدل الصحراوية – البدوية .

ربما يسأل البعض من قراء الكتاب أو من اجيال الغناء العراقي الجديد : كيف استطاع سعدي الحديثي تنمية معارفه الغنائية بهذا الجانب من الفن العراقي غير المدون..؟ كيف استطاع سعدي الحديثي ان يقوى في البحث بالطاقات البدوية الكامنة ..؟ كيف لبى دعوة التاريخ الى تدوينها قبل ان تندثر.. كيف استطاع هذا الباحث العميق الذكاء أن يتجاوز كل ابعاد الزمن والمسافات ليكون عنصرا من عناصر تدوين بعض اصول الاغنية العراقية..؟

لم يتعالى سعدي الحديثي المقيم في العاصمة البريطانية ولم يتراجع عن المسير في دروب الباطن الثقافي الصحراوي لكشف مداه وتأثيراته على الانسان البدوي والحضري ، معًا، في الزمنين الحاضر والقادم.

لم يكن سعدي الحديثي مدونا نظريا منعزلا، بل هو من نوع الباحثين المضطلعين بهكذا مهمة منذ نعومة اظفاره. خاض معتركا من نوع فريد مع الحياة الثقافية ، مع الحياة الشعبية بالذات. اوجد لنفسه غاية من غايات الحياة الانسانية ادى فيها معانيها اوفى تأدية . توجه منذ أكثر من نصف قرن الى غايته الغنائية عن طريق التفاعل مع كل مصادر ومعاني الخير الثقافي، متوحدا مع رؤى حقوق الانسان، متقدما بالحب التام للعدالة، متجها (إلى امام) مرحلة بعد اخرى. لم يشترط على نفسه الصعود (الى فوق) كما يطمح غالبية الباحثة في العادة، بل التوجه بنشاطه وكتاباته ومحاضراته ، دائماً، الى امام . اعتمد على منهج الصدق الماركسي في كشف كل المفارقات الاجتماعية والسياسية التي مرت بالعراق خلال فترة حياته، جعلته مواكبا تطور كل الظروف وتغيراتها من النظام الملكي الى النظام الجمهوري الى النظام الدكتاتوري الى النظام الطائفي، ظل فيها يدرب نفسه ويرتقي بعلومه الى مهارات الرؤية والاستنتاج حول الثقافة الغنائية – الموسيقية باعتباره دارسا وباحثا وشاهد عيان بالرغم من سيطرة الرعب والخوف وانعدام الامن بكل المراحل التي مر بها الفنانون العراقيون خصوصا والمثقفون عموما.

في بداية حياته ، في تخوم الصحراء من بوابة مدينة صغيرة بغرب البلاد اسمها (حديثة) ادرك بوعي عال وذكاء فطري مسند بقراءاته وثقافته ومتابعته ، جوهر التناقض التعددي، الذي تقوم عليه تركيبة الفرد العراقي بين الصحراء والناعور المطل على نهر الفرات. ادرك منذ صباباته ان (البدو) بالأساس هم مجموعة من الناس الاقدمين كانوا من زُرّاع الارض.. جفت اراضيهم فهاجر قسم منهم الى حيث الاستقرار بجانب مصادر المياه والزرع مما نشأت معه حضارة المدينة. اما الجماعة الاخرى الباقية فقد وجدت نفسها مجبولة على تربية الابل والاغنام والرعي في الصحراء. ترسخت بعينيه وفي ذهنه اول تعددية اجتماعية بين الحضر والبدو ، كل له اسلوب معيشته.

حاز على رؤية جديدة حين انتقل من اعالي الفرات الى وسط دجلة لرؤية معنى العيش في مدينة واسعة مثل بغداد يقوم على تعددية من نوع جديد، يقوم على العلاقة بين المالك والمملوك، بين العامل ورب العمل. ازداد وعيا بهذه الحقيقة المجسدة من خلال انتمائه الى الحزب الشيوعي والى التفكير الحر بعد ان اصبح وضعه بالمدينة اكثر تعقيدا .

تعددية الحياة في الصحراء انتجت بعينيه ورسخت بأذنيه العلاقة بين الرجز والحداء ، بين القصيد والاشعار، بين الشعراء والرجّاز، بين العنف والقوة ، بين الهيبة والكبرياء، مما مهد له التفكير بمتابعة كل من اعطى رأيا بالبداوة وفنونها وحكاياتها بدءا من ابن خلدون وليس انتهاء بالدكتور علي الوردي و بروكلمان.

قراءاته الاولى ودراساته الاولى اجلت امام عينيه بوضوح تام ازمة صراع اجتماعي كان واقع الاغنية الشعبية اداة ووسائل التعبير عنها.

تركزت عنده ارتباطاته الذاتية بـ(الآخر)، بـ(المجموع)، بادئا بمغامرة الابداع في زمان النظام الثوري الصعب بعد تموز ١٩٥٨ حين تعيّن معلما بالمدرسة الابتدائية ، متجها الى تعليم تلاميذ الصف الخامس والسادس الابتدائي سيرة الكلمة الانكليزية بطرق مبتكرة نالت رضا واعجاب معلمي المدرسة ومديرها. كان هذا الاعجاب دعوة روحية مباشرة وغير مباشرة، دافعة طاقاته لتطوير لغته الانكليزية مؤهلا نفسه لدراسة الادب الانكليزي اولا والسوفيتي ثانيا والعالمي ثالثا . لأنه استخدم وسائل النظر الماركسية في التحليل والتركيب بجميع ما يتعلق بالمتضاربات والمتناقضات فأنه نال نصيبه من قهر وعدوان مخططي ومنفذي انقلاب شباط الاسود عام ١٩٦٣ ليكون احد سجناء نقرة السلمان ، حيث دخل الى عهد جديد من ملء نفسه بثقافة الاغنية البدوية . اصبح سجينا سياسيا يوالي دراسة اصولها ، من وراء القضبان، متجها الى معرفة موسيقاها وتفاصيلها حتى استقرت ارض السجن وسنواتها تحت قدميه او بدت كأنها مستقرة، لتطويع حنجرته واستكمال وجوده القائم على مقولته : (أنا اغني إذاً أنا حي).

فترة الغناء في السجن كانت اضافة مهمة لمواهب تفتحت اول مرة في البيت وبعدها في المدرسة الابتدائية والمتوسطة حيث كان يشارك بالاحتفالات والمسرحيات مما زوده بقدرة ضبط الاداء الصوتي واللغوي، كما استطاع من خلال وجوده بمدينة حديثة اداء بعض الايقاعات الموسيقية على الدفوف بالمناسبات الدينية وتعلم من خلالها الفرق بين موسيقى الطريقة الرفاعية والطريقة القادرية . كما ان طلعاته الى البادية المحيطة بمدينة حديثة مكنته من بلورة ملكته الشعرية والغنائية حتى اصبح قادرا مثل البدو على غناء الطرب السامري مع الربابة بعد أن أكمل ، ذاتيا، دراسة فنون الشعر والغناء الفلكلوري واساليب الاداء الفعلي لقراءة وغناء المادة الشعرية ،خاصة شعر وغناء البوادي والارياف القريبة منها.

كان صوته منذ كان طالبا بالمدرسة ومن ثم مشاركاته في الحفلات العامة خلال المرحلة الاكاديمية قادرا على الخلق وتأدية وجوده بما يتقنه عن حكايات البدو والبادية وطورهما الغنائي . ثم تقدم بالصعود الى اعلى داخل سجن النقرة امام آلاف متعاقبة من السجناء استطاع بها معالجة قضايا الحب والعدل والصراع والنضال، مرة بصوته المنفرد – بلا موسيقى – ومرة بالتنشئة الصوتية الثنائية مع الشاعر السجين مظفر النواب. استطاع هذا الثنائي الشعري – الغنائي ان يؤثر تأثيرا كبيرا على وعي وسيكولوجية السجناء. كما استطاع سعدي الحديثي من التأثير المباشر على وعي وسيكولوجية البدو القاطنين في قضاء السلمان باعتبارهم سجّانة متميزين بالبساطة وعدم معرفة حدود ما لله وحدود ما لقيصر. لكن زمنيات الاغاني البدوية جعلتهم يتطلعون بارتباط تام مع اغنيات وقصيد وازجال السجين السياسي سعدي الحديثي حيث كانوا يتجمعون برباياي السجن وحوله وداخله للاستمتاع بصوته المتدفق بقوة لا يعيق وصوله اليهم أي جدار رغم انعدام وجود مكبر الصوت.

كان واثقا من نفسه ، واثقا من قدرته في التعبير بواسطة الاداء البدوي المنغم حيث تدخل الكلمة الطيبة الى قلوب البدو السلمانيين المتجمعين حول السجن ليدركوا الطرب الحقيقي ومعانيه المتميزة بالصدق والعمق الداخلة مباشرة الى القلوب .

المعنى هنا ان سعدي الحديثي ما زال موصول العطاء سواء كان سجينا في وطنه او باحثا اصيلا يعايش الحرية في غربته، باحثا عن الاصول او محاضرا في جامعة غربية ايطالية او امريكية او شرقية او استاذا بالجامعة الامريكية بالشارقة او كاتبا صحفيا ليبلغ مديات كلمته الحرة الى ابعد الناس المعنيين بالموسيقى والغناء واصول ومعاني الحكايات الشعبية وقد ارتقى تركيز هذه القضية بكتابه الجديد الصادر اخيرا ليبلغ مشارف السمو الثقافي مؤكدا حضوره الفعلي بالثقافة العراقية التي تعاني بيئتها انحدارا مؤسفاً.

تجربة الكتاب الجديد محاولة انقاذ لجانب من جوانب الاغنية العراقية واصول حكاياتها الشعبية كي لا يستمر الدوار في رقاد الواقع الفني الحالي. الكتاب محاولة مضى بها سعدي الحديثي الى مواصلة امس مع اليوم و انقاذ فنون الغناء والحكايات الشعبية من السذاجة او التمزق لتطوير مستقبلها وتمديده .

لغة الكتاب من ذات النوع الذي تميزت به كل محاضرات الدكتور سعدي الحديثي، التي حضرتُ بعضها ببغداد وعمان وبروكسل ولاهاي بما تحمله من عمق مركّز واصوات واشارات شعرية وتعبيرات قصصية باحاديثه عن الغناء والموسيقى، مما يساعد على وصول علمه ومعلوماته الى القراء والمستمعين بسلاسة تامة ومن دون اية صعوبة.

اظن ان اول من يحتاج الى قراءة هذا الكتاب والاستئناس بمضامينه هو الجيل الجديد من المغنين والمطربين والموسيقيين العراقيين ، مثلما يحتاجه الدارسون الباحثون في طبيعة واصول المجتمع العراقي.

ذات يوم من ايام صيف العام ١٩٩٧ قدم الدكتور سعدي الحديثي محاضرة متميزة في المركز الثقافي الملكي بالعاصمة الاردنية وقد تهيأت لي فرصة تقديمه بتكليف من مدير المركز. قلت بكلام التقديم ان سعدي الحديثي يمثل ائتلاف الاغنية العراقية التراثية وعناصر انتقالها وتطورها وعلوها. ها هو ، اليوم ، بكتابه الجديد يبرهن قدرته الفعلية على ذلك الائتلاف والانطلاق بحركة فكرية غنية المعنى والمبنى.

في الواقع، عاش سعدي الحديثي بعض الوقت من طفولته في قرية ركزت عنده انطباعات الحياة الريفية في أرض عمقها صحراء ، من خلال ، الأغاني، التهويمات، والحكايات الخرافية والواقعية وقد بقيت في ذاكرته وكانت باستمرار مصدرا للإلهام في كتاباته اللاحقة . كما كانت معطيات حاسمة متطورة خلال دراسته الاكاديمية العليا وخلال تدريسه الطلبة بجامعة لندن والجامعة الامريكية بالشارقة.

أنا واثق بحقيقة جهوده المتواصلة ،التي لا تتوقف في جمود ولا ضلال .. إنه بهذا العمر الطويل يحيا بالعمل الثقافي، لكي يحقق وجوده، كما كان شابا يافعا طالبا من طلاب المعرفة وهو الان يتوخى ان يضع جميع معارفه وتجاربه في الابجدية الفنية والثقافية ، في هذا الكتاب وغيره ، امام عيون وعقول اليافعين من المغامرين العراقيين المحبين للغناء والموسيقى من منطلق جذورهما .

انطباعاته الحميمية خصوصية جدا، إنها نتاج تجربة حسية وعصبية تفاعلية. تجربة الانتقال من مدينة صغيرة ريفية – صحراوية نكية (حديثة) الى مدينة كبيرة بارزة في التاريخ القديم (بغداد) ترغب بالتحول الى التكنولوجيا بسرعة ، فيها بعض مظاهر الثقافة الحديثة . في هذا الانتقال انتمى سعدي الحديثي الى حركة اليسار العراقي مشككا بقدرة التحول الاجتماعي على تقويض الثقافة القديمة الناتجة عن العلاقات العشائرية شبه الاقطاعية ، وانغمر في العمل اليومي لضمان هيمنة الثقافة الوطنية – الديمقراطية بتفاعلها الحي المعتمد على ممارسة الحرية كشرط اساسي في العلاقات الاجتماعية والثقافية .. لذا فإن نقل انطباعات سعدي الحديثي إلى خارج تجربته يكون ، في الغالب، أمر بغاية الصعوبة ، لأنها قد تخسر أهم مواصفاتها: الخصوصية وزاوية الرؤية الشخصية. لكنه نجح بكتابه الجديد مثلما نجح بكتاباته ومحاضرات سابقا في نقل تجربته وفائضها بنوع آخر من الخصوصية الساعية لجعلها تجربة حميمية ، موضوعة تحت تصرف الجميع، تحت تصرف الجاهل والمتعلم والمثقف، فقد وجد نفسه دائما في صلب التعددية التي يراها دائما جزءا اساسيا من تكوين الانسان.

افكار الباحث الفنان سعدي الحديثي في كتاب جذور الغناء في الثقافة العراقية ليس مجرد فعل حضور وليس كيانا متجردا ، بل هو خلاصة تاريخية متجسدة بمجتمع سريع الانقلاب والتقلب ، خلاصة تمس قوة وفعل ورهبة الثقافة العراقية لتجديد تراثها من اجل مستقبل فني – ثقافي – عراقي متنوع السبل، متعدد الاتجاه، قادر على المشاركة بمنطق التاريخ العراقي ،كله، في المستقبل الديمقراطي الحر بتكوينه وبنائه .

أبى سعدي الحديثي إلا ان يكون له دور، مهما كان بسيطا ، مخلوقا او خالقا ، للمساهمة في مستقبل الحداثة الغنائية – الموسيقية القائمة على توليد فن جديد من اصول واصالة الفن البدوي والريفي على وفق اشكال تجارب عميقة اوردها بكتابه عن غناء الملاحم والقصيد البدوي .

سعدي الحديثي: الأغاني العراقية الجميلة تتعرض للضياع

زيدان الربيعي

عاد مؤخراً إلى بلده العراق المطرب والأكاديمي العراقي المعروف سعدي الحديثي، وقد أقيمت له ندوة خاصة للترحيب فيه من قبل "ملتقى الخميس الإبداعي" وحضرها جمع هائل من محبيه ومن المعجبين بفنه الجميل، حيث قدم بعض أغانيه في الندوة وكذلك تحدث عن مسيرته الفنية والعلمية . "الخليج" استغلت وجوده وسجلت حواراً معه عن رؤيته لما يحصل في عالم الغناء وأمور أخرى . وتالياً الحوار:

ما جديدك؟

– لا يوجد لدي جديد في عالم الغناء، لأنني اتجهت إلى التدريس في دولة الإمارات في الجامعة الأمريكية قسم التراث الثقافي العربي، حيث إنني لست فناناً لأنتج أعمالاً فنية، بل أنا أقوم بكتابة الدراسات والبحوث والمقالات الفنية .

كيف تقول إنك لست فناناً وأنت تمارس الغناء ولديك هذا ألكم الهائل من المعجبين في هذه القاعة على الأقل؟

– أنا منذ طفولتي أعبر عن مشاعري من خلال الغناء، لأنني نشأت في بيئة صحراوية وهذه البيئة كلامها الطبيعي يشبه الغناء أو الحداء بالنسبة لأهل البادية، لذلك فإن غنائي هو من هذا النوع وهو تعبير عن عواطفي، والحمد لله صوتي ما زال جيداً، لأنني أحرص عليه كثيراً، وأنا لا أغني إلا نادراً، حيث أقوم عندما أنهض من النوم صباحاً بالغناء لنفسي من أجل إرضائها وتطريبها .

كيف ترى الأغنية العراقية الآن؟

– حقيقة لا أريد أن أتكلم عن الأغنية العراقية، لأن الكلام عنها يثير الهموم والمواجع الكبيرة داخل نفسي .

لماذا؟

– لأنه لا توجد مسؤولية فنية ولا توجد مسؤولية أخلاقية ولا مسؤولية دينية ولا مسؤولية ثقافية من أي نوع، لذلك حتى الأغاني الجميلة التي يحرص بعض المطربين المساكين على تقديمها تتعرض للضياع وسط هذه الفوضى العارمة التي ضربت الأغنية العراقية الجميلة في الصميم، لذلك فإن هذه الفوضى التي تعيشها الأغنية العراقية الآن تؤثر تأثيراً سلبياً في الأجيال الجديدة، لأنها ستؤدي إلى ظهور جيل جديد لا يتمتع بالذائقة الجميلة، فالأغنية الجيدة لها دور كبير في تربية الأفكار والذوق والحس المرهف لدى من يسمعها، أما الذي يحصل الآن فهو عبارة عن فراغ في فراغ، لأن الكلمة الجميلة التي تحمل المفهوم الأخلاقي والفني قد ذهبت .

ما السبب الذي أدى إلى حصول هذا التراجع الكبير في سوق الأغنية العراقية؟

– أنا لا أريد أن أقول إن هناك مؤامرة تحاك ضد الأغنية العراقية، لأنني لا أمتلك الدليل على ذلك، لكني أرى أن الوضع وصل إلى ما هو إليه الآن وهذا ناجم عن عملية التسويق في عالم الأغنية العراقية وحتى العربية، أما الآخرون مثلي ومثل غيري الذين يحرصون على تقديم الأغنية ذات الذوق الرفيع فلا يجدون الفرصة لتقديم الغناء الجيد، لأن الطوفان أزاحنا عن مواقعنا بمسافات كبيرة جداً بحيث لم نعد قادرين على المواجهة أو حتى مجاراة الموجة الراهنة، فنحن في بداية شبابنا عندما تظهر قصيدة لشاعر ما في التلفزيون ترى أن أغلبية أبناء الشعب العراقي قد حفظوها عن ظهر قلب وكذلك الحال مع الأغنية، أما الآن فلا يوجد اهتمام بالثقافة والإبداع .

هل أفهم من ذلك أن الثقافة بدأت تتراجع في بلاد الرافدين؟

– يجب ألا تتراجع الثقافة، لأن الثقافة هي التي تبني الأوطان وتجعل الشعوب متقدمة، وتاريخ الثقافة في وادي الرافدين متميز وعريق، لذلك يحاول الخيرون من الأوساط الثقافية والفنية ترك بصمة جيدة حتى نحافظ على ثقافة وادي الرافدين ونمنعها من الانحدار الذي مع الأسف الشديد، قد رافق الكثير من المفاصل الإبداعية والاقتصادية في هذا البلد خلال العقدين الأخيرين .

ما الأغنية الأقرب إلى نفسك؟

– أرى أن "النايل" وهو طور يغنى في المناطق الغربية من العراق هو الأقرب إلى نفسي، وأكثر أغنياتي هي من هذا الطور، فضلاً عن ذلك أرى نفسي في أغاني المطربين الراحلين داخل حسن وحضيري أبو عزيز . كذلك أحب سماع أغاني الأوبرا وأيضاً أحرص على سماع السيمفونية، كما أميل كثيراً إلى سماع الأغاني العراقية الفولكلورية . أما الأغاني الشعبية الحديثة فلا أحب أن أسمعها على الإطلاق .

أغنية لغيرك تمنيت أن تكون لك؟

– حقيقة كنت أتمنى أن أغني مثل داخل حسن وحضيري أبو عزيز لكني لم أستطع، كما كنت أتمنى أن أغني مثل بعض أقاربي الذين يغنون غناء البادية على آلة الربابة، وأتمنى أن أكون شاعراً مثل الشاعر الكبير مظفر النواب .

هل لك محاولات في مجال التلحين؟

– نعم لدي بعض الأغاني من ألحاني . لكنني لا أطرح نفسي كملحن بين الملحنين، إنما كل قضيتي مع الغناء هي سائرة في مجال الهواية لا غير .

عندما تقوم بالتلحين كيف تتعامل مع النص؟

– أكثر الألحان التي لحنتها كانت من كلماتي، لذلك يكون تلحيني لها بطريقة عفوية ولا تحتاج إلى طقوس معينة، بل أردد الكلمات مع نفسي بطريقة الغناء ثم بعد أن أقتنع بلحن الأغنية أقوم بتسجيلها.

■ عن: جريدة الخليج الاماراتية

سعدي الحديثي

ربابة الفرات العالي

حسين الهنداوي

منذ اكثر من اربعة عقود وسعدي الحديثي يغني الفرات كله كما لم يغنيه أحد من قبل. ومن يغني الفرات يغني العراق بداهة: كلاهما رديف الخليقة والخير والحيرة الابدية، وكلاهما يكون هائما وجميلا ومبدعا او لا يكون. لكن الفرات العالي والمتيم والعذب هو ما يمور به وجدان هذا الفنان والشاعر الذي سعى الى تحويل غناء البادية الى فنّ بذاته من مجرد أعراف، بالغا مكانة متميزة بين رموز الابداع وتحديث الابداع الغنائي الرافديني والعربي المعاصر، وشاقا طريقه بنفسه الى كل العالم، وغالبا في ظروف عسيرة للغاية وحصارات لا تحصى ولا تنتهي رافضا الاحتراف والاتجار بالفن في الوقت ذاته.

الفنان سعدي الحديثي في صورة خاصة

ولأن الفرات أكثر الانهار انتماء الى الصحراء اذ تحضنه ويعانقها معظم الطريق من منابعه حتى المصب، ناشرا فيها الغلال والالوان والرؤى، لا يكاد فن سعدي الحديثي، المولود على ضفاف الفرات والصحراء معا، ان ينضب او يخل بشيء مستلهما ثراء قصصهما الاولى واغانيهما العريقة، ومستظلا بعز كل تلك الروح السارحة عن سبق اصرار في السمو والحنين والعتاب، تلك الروح القلقة كما لو الى الابد، البدوية الصدق والشجون غالبا، والمتهيأة للترحال القسري بين حين وآخر لا سيما نحو دواخلها الحميمة وبغداد قطعة من هذه الدواخل دائما، بل القطعة الاغلى.

هذه الانطباعات والاحاسيس هي لدي حصيلة تأمل ذكريات تناثرت لحظاتها على امتداد ما يقارب اربعة عقود من الزمن هي الاخرى، اذ تعود الى نهاية الستينات الماضية وفيها من الصور والالوان والوشائج كمًا كبيرا يجعلها متابعة واقعية وعن كثب و ورومانسية القصد اصلا.

ففي ثانوية الشعب في الكاظمية، في نهاية ١٩٦٣، سمعت اولى الكلمات عن فن سعدي الحديثي انما كمدرس يحبه تلاميذه الى درجة التباهي، حيث كان زميلي في مقاعد الثانوية صديقي الشاعر د. حميد الخاقاني قد انهى دراسته المتوسطة في ;مدرسة الفجر للبنين في ضاحية محلة النواب بالكاظمية، فنال، كما يعتقد، حظ ان يكون بين معلميه فيها مظفر النواب وسعدي الحديثي معا ;وتلك نعمة ; كما قال في مداخلة في برلين مؤخرا.

بيد ان لقائي الاول مع سعدي الحديثي كان في كلية الآداب بجامعة بغداد التي دخلتها في عام ١٩٦٦. فقد جمعتنا فيها حتى ١٩٧٠ بعض اسعد سنوات حياة اكاديمية في كل تاريخ العراق الحديث ربما. كان سعدي الطالب في قسم اللغة الانكليزية اكبر منا عمرا ببضع سنوات. واثرى تجربة بكل شيء تقريبا، وهو ما سنعرفه شيئا فشيئا ببطء عفوي فرضه تواضع جم وصمت لافت عن الحديث عن النفس صار من المواقف المشهور بها بيننا.

سفرة طلاب جامعة بغداد اليساريين الكبيرة الى سدة الهندية في نهاية ١٩٦٧ التي نظمها اتحاد الطلبة العام في الجمهورية العراقية (القيادة المركزية) غدت تحديا سياسيا لامعا صار يتسارق مجده لاحقا كثيرون، الا انها كانت فرصة جميلة فعلاً في تعرفنا على الموهبة الفنية الفذة لسعدي الحديثي ذلك الطالب العائد الى الدراسة الجامعية من جديد اثر قرار لحكومة عبد الرحمن عارف بإعادة السجناء السياسيين الى كلياتهم ووظائفهم شرط التزامهم القطعي بتعهد مكتوب بالابتعاد عن اي نشاط سياسي مهما كان والا الفصل من الدراسة.

ويتذكر الاديب المترجم ملهم النقيب عن تلك السفرة ما يلي:

كنت جالسا الى جانب سعدي الحديثي طوال الطريق وكان الآخرون يغنون وانا اغني معهم. ويبدو ان غنائي قد استفزه لقبحه فأخذ يدندن مع نفسه وهو ما ابهرني على الفور. فقد كانت تلك المرة الاولى التي اسمعني فيها صوته الذي لم يكن احد في الكلية قد سمعه قبلي مطلقا. وعند نزولنا من الحافلات بدأت اشيع الخبر وهو يعترض الى ان اضطر في نهاية الامر الى النزول عند الحاحنا وصعد ليغني بصوت لا زالت رخامته تحيا الى اليوم في اذني:

يا ساعَه يا يُوم كلّي يا شُهرْ يا سَنَه
إنْطَلّ برجاكُم يو لا ينكطعْ ياسَنا
إسْأَلْ طبيب الذي بحال الولَم ياسنا
ما خَبَرَكْ بصْواب كلبي؟ شْكال؟
صندوك كلبي إمتلى مِنْ الهموم أشْكال
لا يَا لَئيم اللي ما تبالي بالزْمان إشكال
كلي الفرَج.. يا ساعَه يا يُوم كلّي يا شهر يا سنه..

لكن متعة هذا الاكتشاف لن تتوقف بعدئذ. وكالمحظوظين برحمة غير متوقعة رحنا، نحن زملاؤه الاقرب في الكلية، نتلذذ باستراق التسمع بين فرصة واخرى الى عَتابة عابرة او سْويحْلي او كِصيدْ او نايل او ريلْ وحمدْ تفلت كقطعة روح من بين اعماق حنجرة نافرة ومضغوطة اصلا، سرعان ما تترك مكانها لشرح جذل عن معنى كلمة او اخرى لم نفهمها في البدء تماما. ثم كجرح شجي تسامى الصوت من جديد:

هَذولَه إحنَه سَرَجْنا الدمْ عَلَه صْهيلْ الشِكرْ
يَسْعودْ
خَلّينَه زهرْ لِنْجومْ من جَدْحْ الجوافرْ سودْ
تِجادحْ عْيونْ الخيلْ وعْيونْ الزَلَمْ بارودْ
وياخذنا الرسَنْ للشَمسْ مِن زوْدْ الفرَحْ ونْزودْ
يَسْعودْ إحنَه عيبْ إنهابْ، يا بيرغْ الشرجيّة
خَلّه الدمْ يجي طوفانْ، كِلنَه إنخوضْ عِبرية

الفنان سعدي الحديثي يتوسط نخبة من زملاء في كلية الاداب مطلع عام ١٩٦٨

فهذه، كانت التصديحة الاروع والاحلى التي حركت اشجان كلية الآداب تلك اليسارية والارستقراطية العطر في ذات الوقت، لنكتشف عبرها مذهولين روعة هذا الصوت القادم من اعالي الفرات مثقلا بالصدق والتحدي كما بالمحبة لكل جنوب، ونابضا بالعراق الابهى والاسمى في كل زاوية من قلبه تماما كما تحملها روح كلمات قصائد مظفر النواب اعلاه والعشرات غيرها التي منحها صوت سعدي الحديثي بعدا خلابا ومتساميا اضافيا.

وتدريجيا رحنا نكتشف ان طالب اللغة الانجليزية هذا يمتلك ايضا خزينا معرفيا لامعا جعله محيطا بأعذب شعر واغاني البدو مع نظرات جديدة وعميقة ومبتكرة عنه. لكننا اكتشفنا علاوة على كل ذلك مواهبه الادبية الاخرى التي لم تكن ترجمته لنصوص حول الادب السوفييتي; نشرتها مكتبة بغداد في كتاب بهذا العنوان في ١٩٦٨، الا جانبا واحدا منها.

كما سنعرف ان هذا الشاب المنحدر من عائلة بيت قرقاش المشهورة بتكيتها في مدينة حديثة، لم يكن يساريا وحسب، وهو امر مدهش وحده أنئذ من أبناء بلدة تقليدية الصيت متبعثنة المزاج بشكل ميئوس منه، بل كان سجين ضمير أمضى عدة سنوات قاسية في المعتقلات دون جرم على الاطلاق، وبتهمة تهديد أمن الدولة، لمجرد رفضه شتم رموز سياسية وطنية أمام الجلاد. ففي تلك السنوات بدا سعدي نجما سلفا. بل النجم بين فناني تلك الكلية التي كانت تمور بالابداع والخلق الجمالي والفني من كل نوع ولون اصيل ويكفي ان نذكر من تلك الاصالة الصافية فيلسوفا موهوبا كمدني صالح ومفكرا كمحمد مبارك المثقف اليساري العائد ايضا الى الكلية بعد سنوات في السجن، وشاعرا مجددا كعبد الرحمن طهمازي بين آخرين كان مجرد حضورهم يضفي بهجة زاهية على كلية الآداب تلك بين نظيراتها في العراق والعالم العربي. وثمة اسباب عديدة وقفت وراء ذلك الصعود والتميز. فهذا فنان رفيع المهنية والذوق الغنائي والجمال الصوتي المتعالي وتلقائي التواضع والشفافية في آن، فنان لا يغني ابدا نزولا عند رغبة احد وانما فقط حين كان يحس الحاجة الداخلية عنده – او عندنا احيانا– للغناء. وفوق كل ذلك كان الاول الذي علمنا يوما، نحن الفراتيون الاقحاح القادمون من قلب ارض الفرات، ان هذا النهر هو هو في كل مكان: منبع للحياة والبراءة والجمال والكبرياء والذاكرة. النهر الذي كان يسقي الجنة وبعد ان انتهى الله من جميع اعمال الخلق حوّل مجراه ليسقي الارض ولم يكن قد نبت بعد في الارض شجر بري ولا عنب بري وأسماه فراتا (كماجاء في سفر التكوين من العهد القديم).

نهر الفرات امام مدينة حديثة

وكما ان سعدي وريث وفيّ ودؤوب لكل تلك الثروة الغنائية الاصيلة التي يمثلها غناء البادية العراقية، فانه وريث كبير ووفي كذلك لكل ذلك التراث الخصب والخبرات العراقية في الموسيقى والشعر الشعبي البدوي والجنوبي، كما تشهد على ذلك مؤلفاته العديدة بدءا من أغاني الجوبي في اعالي الفرات; اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٨٤ وانتهاء بدراساته ومقالاته ومحاضراته الكثيرة عن الغناء البدوي والشعبي والفولكور المنشورة وغير المنشورة.

وروى لنا الصديق ملهم النقيب ايضا ان سعدي الحديثي أصطحبه مرة الى منطقة (ابو غريب) لزيارة شاعر وراوية بدوي طاعن في السن اسمه (ابو عيادة) كان بمثابة الحافظة التي يستقى منها الكثير من (الكصيد) والاخبار والسير;وكان اللقاء طويلا رغم تقدم (ابو عيادة) في السن بل ان حافظته بدت عجيبة الى حد اثار شجون سعدي للغاية. وعند عودتنا الى بغداد ركبنا في سيارة أجرة، وكنا الوحيدين فيها مع السائق. ودون ان يطلب منه احد الغناء سمعت سعدي يدندن مع نفسه بقصيدة طويلة سمعها من ابو عيادة، فأذا بسائق السيارة يهتز طربا فيما راح سعدي يتحفنا بمقطع اثر آخر طوال الطريق الى بغداد كما لو ان حاجة داخلية ماسة دفعته الى ذلك. ولقد كانت برهة السفر تلك لوحة غنائية رائعة رغم عفويتها سمعت فيها من الشعر البدوي ما لم اسمعه قط من قبل.

اما القصيدة تلك التي يختلف الباحثون والرواة بشأن نسبتها الى شاعر بذاته فتعد اليوم بين اجمل الشعر البدوي الحديث ومطلعها:

نطيت رجم وثاري الليل ماسيني
; بْدَيَرْ غربْه يْعَلّي السيل ما جاها
اضحك مع اللي ضحك والهَمْ طاويني
طَويَة كَرْبْ الطلَبْ لو وشْلو ماها
علامج ما تذرفينْ الدمع ياعيني
على هَنوفٍ جديد اللبسْ يزهاها
هبتْ هبوبْ الشمال وبردها شيني
ما تدْفي النار لْيا حنّا شعلناها

ان الوصول الى هذه الاصالة المتميزة في الاداء والذوق والمؤالفة والتوثيق الشعري والموسيقي التي لدى هذا الفنان تعود بلا شك الى ما فيها من خصال تلك الروح البدوية غير المستقرة في اي مكان او في اي زمان ربما، لكن الغائرة الجذور والجروح في عالمها الخاص الوجودي جدا. وسعدي الحديثي المترعرع في عائلة دينية يخبرنا بانه بدأ وعيه العالم الذي يحيط به بتقليد جده في كل شيء، وذلك منذ الثالثة من العمر عندما بدأ بمحاكاة طريقة تلاوته للقرآن الكريم وطريقة صلاته وتمتماته وكيفية نطقه الحروف واداء الكامات. ذلك الجد لم يكن الوحيد في التأثير عليه لكنه ;كان هو الاقرب إلى روحه وصاحب الاثر الابلغ في صقل مواهبه الصوتية والذوقية ونزوعه الى التصدي لتقلبات الريح والتقاليد والقيم البالية.

وكما لا يمكن الكلام عن سعدي دون الكلام عن مدينة حديثة، لم يعد ممكنا الكلام عن حديثة دون الحديث عن ابنها الموهوب هذا، حامل طيبها الى كل العراق والعالم.;

ففي تلك المدينة الفراتية التي تشبه تشكيلة من جزر، والعذبة الهواء بالفطرة، كانت نشأته الفنية الاولى حيث يخبرنا بأن البيت الذي نشأ فيه حتى الخامسة من عمره كان له دور في تكوينه: كان ظهر البيت إلى الصحراء وواجهته على حقل من النخيل وبعض الاشجار وهناك ما بين نهر الفرات والحقل نحو ٤٠٠ متر، وكان عندنا حوالي ٤٠ رأس غنم فهذه حياتنا وفي هذا الجو عشنا. وفي حديثة بدأ تعلم المراقبة والانصات ثم وجد نفسه يحفظ كماً هائلاً من الاغاني الفلكلورية ومن القصيد البدوي، كما زادت قدرته على الغناء وعلى التعبير. وعن نشأته الاولى، سيخبرنا سعدي لاحقا ان مواهبه في التلاوة والغناء بدأت تظهر جلياً بعد التحاقه بالمدرسة الابتدائية فصار يكلف بالادوار المسرحية التي تتطلب الغناء، وكذلك بالغناء في الافراح العائلية، فيما غدت فصول الإنشاد الديني في الاحتفالات الدينية، وخاصة في تكية جده الشيخ خيرالله في ليالي الجمع، حقلا خصبا لتعلم الغناء وضبط الاداء وحفظ الكلمات..

ثم جاءت الطلعات إلى البادية والاستماع الى شعراء وعازفي البادية لتسمح بإثبات ملكته الذوقية والغنائية حيث بدأ كما يقول أغني كما يغني اهل الريف: اضغط على حنجرتي واخرج صوتاً يطرب له المحيطون بي ولكني تعلمت من البدو كيف يخرجون الصوت من الرأس وهم يؤدون العرضة وكيف يخرجونه من الصدر وهم يغنون مع الربابة وفي اغاني السامري، وحين جئت إلى بغداد وكانت لغتي الانكليزية قد تطورت ففتحت لي عالماً جديداً ووقعت على كتب علمتني كيف أطور لياقتي الصوتية، فدخلت مرحلة جديدة رغم تأخرها رفعت من قدرتي وميزتني عن معارفي من المغنين بل وعن الكثيرين من المحترفين في الغناء العراقي.

في هذه المرحلة الجديدة، صار هذا الفنان يتدفق كنبع صحراوي مفرد وثر ودائم مضفيا بهذا تواصلا لم يكن موجودا من قبل في اغاني البادية العراقية. ومعه باتت انغام كل الهلا بْحَبيبي الجاني زْغالنْ، طابجْ ورده وخزّامَه والوسطْ غْرانْ و وليّ عَرنَه وليّ خانه، يوّلي وينْ ربيانه، و يا بو جَردْ ناعورْ جَردَكْ دِيره، مثل الرمَد بالعين عشكْ الزغيره، وياعين مْوليتينْ وْعينْ موليه، وعَلّماني يُمَه الماني، وعالميجَنَة وعالميجنة وعشرات النصوص الغنائية، البدوية المحضة في الاصل، من مكونات ذواتنا العاطفية المدينية، هذه المرة، الاكثر نبضاً وحميمية بعد ان كانت مجرد تراث متوار او ناءٍ او مجهول.

وفن سعدي الحديثي ثري وأصيل ليس من الزاوية الجمالية والفنية وحسب انما من الزاوية السياسية اذ من خلال تأمله نتأمل شجون مرحلة تاريخية كاملة من حياة العراقيين والعراق الحديث بكل ما حفلت به تلك الحقبة من عطاء وبطولة وآلام وانقلابات لا سيما وإن جزءا كبيرا مما يجب ان يقال عن تلك الحقبة اضحى قيد النسيان بل التشويه والاهمال المنظم احيانا من قبل جماعات طارئة او غريبة عليه او معادية له وتخشاه بالتالي كمرجعية حضارية وانسانية.

فقصائد مظفر النواب وكذلك أغاني البادية العراقية بصوت سعدي الحديثي تظل شاهدا على روعة عراق الستينات التي سرعان ما ستنطفئ جذوتها الخلاقة تلك تحت ضغط سموم ودمامة وهمجية البطش البعثي الذي داهم العراق اثر انقلاب عسكري في ١٧ تموز ١٩٦٨. بيد انها تظل شاهدا ايضا على ان العلاقة بين هذا الفنان والشاعر مظفر النواب لم تكن مجرد علاقة مغني بمؤلف كلمات انما كانت علاقة انسانية صافية.. فسعدي الحديثي كان مناضلا يساريا عانى هو ايضا وطويلا الاعتقال والاضطهاد والنفي والسجون وهو في مقتبل العمر. وهي اهوال لم نكن جربناها بعد آنئذ ولم نكن نعرف عنها سوى ما كان يصلنا عنها في القصص والاحاديث;

ومن المناسب أن اذكر شيئاً عن نوعية المحاكمة التعسفية التي ألقت بسعدي الحديثي في سجن نقرة السلمان الصحراوي مطلع ١٩٦٤، كما رواها مرة لي بنفسه:

تبرع بعض زملائي الطلبة والقوا القبض علي داخل كلية الآداب، وهي حكاية طويلة.. اما ما جرى اثر ذلك حتى الوقوف أمام الحاكم في قاعة المحكمة فكان ما يلي: بعد سبعة عشر شهراً من التوقيف والتحقيق والنقل من موقف إلى موقف ومن سجن إلى سجن والتعرض إلى اصناف الإهانات والضرب فقط وليس التعذيب كما جرى لغيري تمت إحالتي إلى محكمة عسكرية بتهمة الإنتماء إلى منظمة محظورة وعقوبتها القصوى ستة أشهر! وبعد الأستجوابات الروتينية المعروفة تطورت المساءلة وتركزت على ثلاث أسئلة لا غير: هل مصطفى البارزاني وطني أم عميل؟ وهل الحزب الشيوعي وطني أم عميل؟ وهل عبد الكريم قاسم وطني أم عميل؟ كان جوابي هو لا أدري في الحالات الثلاث ولم أكن مجابها أو متحدياً قط، لكنني كنت صادقاً تماماً، إذ رغم موقفي المختلف مع تلك الجهات الثلاثة، لا دليل يدفعني الى التشكيك بوطنية أي منها. الا ان جوابي ذلك فجر غضب الحاكم الذي انتفض ممتعضا خاصة عندما رفضت الطعن بالبارزاني، وراح يضغط علي كي أقول عن الاخير بأنه عميل، ثم سألني بنبرة غاضبة هازئة: وهل انت عربي؟، قلت: نعم سيدي. قال وكيف تثبت لي انك عربي؟ قلت: أمي وأبي عرب أقحاح ونسبي الى بني هاشم من قريش، وأنا أعشق لغة العرب وأحفظ شعرهم

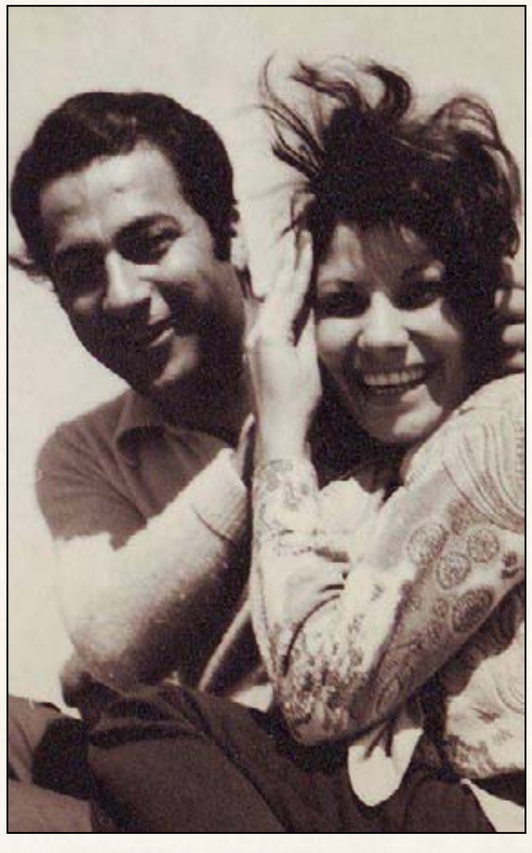

عراقيون
من زمن التوهج

عراقيون
من زمن التوهج

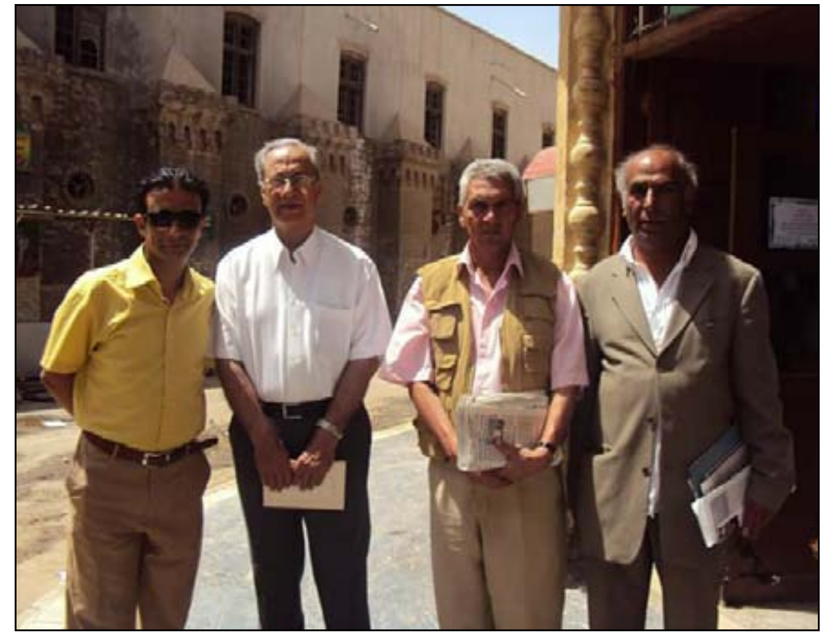

الفصيح وقصيدهم البدوي وأعتز بالتراث العربي وأفخر به لأنه تراث أجدادي. وهنا ارتفعت حدة غضبه ليسألني صارخا: كيف اذن إن كنت عربي وتجهل إن كان البارزاني وطنياً أم عميلاً؟! قلت له أتريدني أن أشرح لك كيف؟ قال نعم، كيف؟! قلت: في العهد الملكي وصفوا البارزاني بالعمالة والطرد إلى خارج العراق، ثم وجدناه بعد أكثر من عشر سنوات يعود إلى الوطن ويستقبل كرمز وطني إثر ثورة تموز ١٩٥٨، وبعد فترة قصيرة راحت حكومة عبد الكريم قاسم تصفه بالعمالة وبدأت الحرب مرة أخرى، ثم سقطت حكومة قاسم وجاء البعثيون بانقلابهم الدموي وعاد البارزاني وطنياً معزّزاً مكرماً، ثم في أقل من ستة أشهر تغيرت الدنيا فوصمته سلطة البعث بالجرم والعمالة. وعندما حدث انقلاب عبد السلام عارف عاد البارزاني وطنياً من جديد، ثم ها هو الآن عميل كما تقول الحكومة.. هذه حكومات يا سيدي لديها علاقات رسمية وشخصية مع هذا الرجل ولديها وفود مفاوضة ومخابرات واستخبارات ومخبرين من جميع الأوصاف ومع ذلك لم تستطع كل هذه الجهات أن تحسم إن كان وطنياً أو عميلاً!! كيف تريدني أن أقرر أمراً وليس عندي أي دليل؟ هنا بلغ الغضب أقصاه لديه، فقرر اضافة مادة جديدة- غير المادة التي جئت بموجبها والتي تحكمني ستة أشهر- وهي المادة ٣١ (تهديد أمن الدولة) وحكمني بموجبها بالسجن لثمان سنوات اضافة إلى ستة أشهر وسنتين أخرى تنفيذاً لحكم غيابي سابق. لكن غضبه لم يقف عند هذا الحد. اذ بعد ان أصدر الحكم أشار بحاجبه إلى الحراس بأخذي، فتصورت الأمر قد انتهى لكني فوجئت بعشرات الأيدي تنهال من ورائي عليّ بالضرب في قفص الإتهام وأمام أنظاره وأنظار هيئة محكمته! ما كان بمقدوري أن أفعل أي شيء إزاء استمرار الضرب إلا الصراخ بوجهه هو وهيئة محكمته بكلام تحول إلى مادة للتندر من قبل المحكومين الآخرين لأنني كنت أردد عبارة (مجرمون.. احكموني تسعين سنة لماذا تضربوني؟)، اذ يدور التندر حول لماذا قلتُ تسعين سنة ولم أقل مائة؟!

مشهد من مدينة حديثة الغنية بالنواعير

ويذكر الشاعر العراقي الفريد سمعان ان سعدي الحديثي حل مع مظفر النواب في قاعة رقم عشرة من سجن نقرة السلمان الصحراوي – المخصصة لاستيعاب ستين فردا فضمت اكثر من مائة واربعين معتقلا- بسبب افكاره السياسية على الارجح. وفيما كان مظفر النواب يشترك في القاء قصائده المتمردة، كان سعدي الحديثي، كما روى سجين كان معهم، يصعد بمقام يشد الابصار والايدي ويخرج الاذان عن صمتها وتتوقف الحركة برهة.. واحيانا يستجيب مظفر له ويصبح العشاء غنائيا اذا صح التعبير، اذ شكل سعدي مع مظفر ثنائيا في الغناء والشعر أضاء ليل السجن الصحراوي ذاك وابدع في تجديد الأغاني الشعبية والبدوية بالنسبة لسعدي خاصة الذي اعتبر الأغنية الملتزمة بما فيها الوجدانية، هي رسالة كما ان القصيدة الشعرية هي عند مظفر النواب رسالة أولاً وقبل كل شيء.

من جانبه كتب الفنان التشكيلي يحيى الشيخ السجين السياسي السابق في سجن السلمان مع مظفر النواب وسعدي الحديثي: كان مجلسنا أغاني مبحوحة وقصائد ونوادر وحكايات وكل ما ينفينا الى خارج السجن... واحد من بغداد والآخر من حديثة والثالث من العمارة... ثلاثة مشاريع لثلاثة مصائر

ويضيف سياسي آخر كان في ذلك السجن: ان مظفر وسعدي التقيا ايضا في أمسيات مشتركة كانت يتم تنظيمها من قبل اولئك السجناء في ساحة كرة السلة داخل السجن؛نشدا خلالها كلمات الحب والثورة، عبر صوت واحد في صوتين انطلق جامعاً قلوب تلك الآلاف التي تطحنها آلام السجن وبعدها عن الشعب الجريح ومع صوتهما وبفعله تمتلئ ربايا السجن من كل جهاتها بالسجانين يتفرجون ويسمعون، قد يفهمون ما ينشده سعدي ومظفر وقد لا يفهمون. ويذكر السيد محمد علي الشبيبي في مؤلفه ذكريات الزمن القاسي عن تجربته في ذات السجن: ان الأماسي تكون ذات نكهة خاصة عندما يحييها مظفر النواب وسعدي ألحديثي بصوته ذو النبرة المتميزة بطريقة غنائية يتناوب عليها الإثنان. كان صوتهما يملأ فضاء ألسجن حتى يتخيل لك أن هذا الصوت ألجميل الذي يجمع بين صوت إبن المدينة وصوت البدوي إبن ألصحراء يخترق هذه الصحراء الشاسعة ليصل الى أطراف ألقرية.. كان صوتهما يشق سكون ليل الصحراء الصيفي ليقول لكل من يسمعه نحن هنا نحطم قيود ألسلطة الدكتاتورية ونتحدى ارهابها بصوتنا، رغم تعسفها وإضطهادها لنا سوف نبق ننشد للحياة وكلنا أمل بأن قضية الشعب ستنتصر

هذا الرصيد من التاريخ والتضحية لا نجده الا لدى ندرة من الفنانين والشعراء العراقيين او العرب الآخرين. واذا كان عقد هذا الثنائي النضالي سيضطر الى الانفراط، فانه سيعود بعد ١٩٩٥ الى التألق من جديد كثنائي ثقافي في المنفى هذه المرة ليثمر عن تسجيل عدد من الاشرطة والاسطوانات، وعن احياء عدد من الامسيات الشعرية الغنائية البديعة في لندن اولا ثم في السنوات الاخيرة في برلين وشيكاغو وهارفرد وبوستون ودبي والبحرين وغيرها من عواصم الدنيا نالت اصداء فنية واسعة، انما دون احتراف ودون اتجار دائما.

وكما كتب أحد النقاد مرة، فان السر في عظمة غناء سعدي الحديثي انه يرفض مصاحبة اي آلة موسيقية لغنائه ويعتمد كليا على صوته وكلماته. السر الآخر برأينا هو اننا امام فنان يعيد للعراق كإعادة فلذة الكبد، فنّا رفيعا كاملا وموثقا كان قد هاجر من موطنه الاصلي على ضفاف دجلة والفرات إلى مصر مرورا ببلاد الشام منذ ازمنة سقوط بغداد تحت حكم المغول عام ١٢٥٨، ولم يعد منه في العراق سوى تلك القطع الموسمية والمتقطعة التي كنا نسمعها من اشهر مغني البادية العراقية قبل سعدي لا سيما جبار عكار وملا ضيف الجبوري وابو جيشي مطلك الفرحان وكذلك حضيري ابو عزيز في النايل الجنوبي وآخرون. وسعدي الحديثي يتميز عليهم جميعا ايضا بكونه ليس مجرد قامة صوتية مثقلة بالخصب والاصالة، انما في كونه ايضا شاعرا وخبيرا منهجيا فريدا في توثيق موسيقى البادية، فهو يغني أغاني البادية القديمة ويجددها وينظّر لها ويؤسس لفن الموسيقى الشعبية مادة معاصرة تواكب تطور هذا الفن عالميا.

لم أسمع أحلى من صوته الجميل سيكتب الكاتب الكويتي محمد الرميحي اثر استماعه لسعدي الحديثي يؤدي مجموعة من نصوص الغناء الشعبي البدوي في امسية حضرها في دبي عام ٢٠٠٣.

وبالفعل، انها عالم رحب بالفطرة وانساني هي حنجرة سعدي الحديثي الرخيمة، حيث يشعر كل مستمع بشوق ما للتماهي للحظة او اخرى مع تهاديات صوت منغّم، باسق وعميق، يحمل قلبه وتاريخه بيديه متعاليا برهافة تحمل، حتى في هياماتها ومنافيها الابعد، روحا عراقية صافية وضميمة انسانية كونية تتغلغل بين الجوانح حتى اليابسة جدا منها، ولسان قلبها ينبض بالحب والحنين الى نفس تلك الاعالي وتلك الوجوه:

يا عابرٌ الليلَ لديارٌ الأحبها ترِدْ
ما تفعلْ الروحْ عنْ اللي تريده ترِدْ
كلْهمْ لَهَنّه ريامْ الْ علْمنابعْ ترِدْ
ما تشربْ الماي إلا رايك وجاري.
وأنا على الدومْ حافظْ لابتي وجاري
لا كولْ ويلي ولا اشجي العليّ جاري
مطّمنْ ومعتقدْ ذيج الليالي ترِدْ

سعدي الحديثي المسافر بالفرات إلى جنته الأبدية

فاروق يوسف

التقط الإيقاعات كما لو أنه يقبض على جمهرة من الأعشاب التي يصنع تنوعها خريطة لعاطفة شعب. سكب في مياه نهريه دموعه التي تمتزج من خلالها أفراحه وأحزانه. لحظات سعادته وقرون تعاسته وهو في ذلك كان وفيا لانتمائه لشعب لا يجد في البكاء نقيضا للضحك بل مكمّلا له. ضحك ليس كالبكاء، بل صاحبه الوفيّ.

ما فعله وهو يعيد سباكة الأصوات الرعوية والريفية في قوالب تحفظ لها مادتها الأصلية جعله أشبه برواة الشعر العربي القديم وجامعي الأخبار النفيسة والمنقبين في الأمثال عن أصولها الحكائية التي تلحقها بالخرافات المنسية. هو ابن لحظة إشراق لا تتكرر.

الأكاديمي يتبعه صوته الشجي

هو حارس الذاكرة أكثر من كونه باحثا وهو باحث أكاديمي رصين أكثر من كونه مؤديا مفعما بأنغام تكاد تكون هاربة. يمكننا أن نقلب التسلسل، فيكون سعدي الحديثي مطربا من طراز فريد أهّله بحثه الأكاديمي ليكون حارسا للذاكرة، منفيا في متاهتها.

لكن الرجل الذي خبر طرز الغناء العراقي كلها غنى حبًا في الغناء لا رغبة في أن يكون فنانا. صوته المشحون بالتعبير يقول ذلك. لربما حلم يوما ما، كما قال أن يكون نوعا من داخل حسن أو حضيري أبو عزيز، وهما من رواد الغناء الريفي في العراق، غير أنه لم يسع إلى تحقيق ذلك الحلم، بل فعل العكس تماما حين انكب على الدراسة. دراسة الغناء كما لو أنه علم.

أن تكون دارسا للغناء غير أن تكون مشتبكا به عن طريق الفطرة. الحنجرة شيء والأذن شيء آخر. لذلك لم يحاول الحديثي بالرغم من ملكته الصوتية أن يكون الاثنين. كان لديه ما يفعله ليكون رجل القدر الذي سيتصدى وحده للقيام بمهمة، قد لا تنجح مؤسسات ثقافية كبيرة في القيام بها.

كان قدر الحديثي أن يكون راعيا لجمال وزّع ناياته بين ضفتي الفرات، من غرب العراق إلى جنوبه. لقد قضى ابن حديثه الجزء الأكبر من حياته وهو يمشي، تتبعه الأغنيات فيما تنصت أذنه لرفيف أجنحة نغم لا يزال عاكفا على فطرته.

ولهذا كان رائدا لنوع بحثي لا يزال حتى اللحظة يكتنفه الكثير من الغموض.

من تكية جده إلى الأفراح العائلية

ما وثّقه الحديثي، وما سجّله بصوته وما لم يسجّله هو واحدة من أعظم الشهادات على ذلك التنوع الجمالي العجيب الذي تنطوي عليه الشخصية العراقية في لحظات تأملها الداخليّ العصيّ على الفهم. هناك شعب استفهامي صنع من الغناء مادة يفسر من خلالها وجوده أمام الطبيعة.ولد سعدي الحديثي في مدينة حديثة، غرب العراق. في عائلة عرفت بزعامتها الدينية وكان لجده خيرالله تكيّة هناك. وهي المكان التي شهد تألقه في مجال الإنشاد الديني منذ أن كان طفلا وكانت شهرته في الأداء الصوتي قد أهّلته لأن يعتلي المسرح أثناء دراسته الابتدائية ليؤدي الأدوار الغنائية وهو ما شجعه على الغناء في الأفراح العائلية.

أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن كانت بعنوان "أغاني الجوبي في أعالي الفرات" عام ١٩٨٤ قدمته باعتباره منقبا في تاريخ الروح غرب العراق، وكان إخلاص الباحث فيه قد دفعه إلى أن يمد نظره إلى الجنوب ليلتقط تلك الأصوات المنداة بهسيس البردي في أهوار الناصرية والعمارة

وبالرغم من تلك البيئة المحافظة التي نشأ فيها يضاف إلى أن الميل إلى الفكر القومي كان هو السائد في بلدة يجمعها نهر الفرات بسوريا فإن الحديثي انفرد بهوى شيوعي قاده عام ١٩٦٤ إلى مواجهة عقوبة السجن، في واحد من أسوأ السجون العراقية، نقرة السلمان. ذلك المنفى الصحراوي الذي كان الدخول إليه بمثابة تلويحة وداع للحياة. هناك التقى الشاعر مظفر النواب الذي كان هو الآخر مسجونا للسبب عينه، ليشكلا ثنائيا، أثرى أحدهما الآخر بالأصوات والكلمات والإيقاعات.

عام ١٩٦٦ وبعد أن غادر السجن بدأ بدراسة اللغة الإنكليزية في كلية الآداب ببغداد وكان أكبر سنًا من زملائه بسبب انقطاعه الاضطراري عن الدراسة. غير أنه كان متفوقا عليهم في تمكّنه اللغوي وهو ما تشهد عليه النصوص التي ترجمها عن الأدب السوفييتي التي نشرها في كتاب، صدر عام ١٩٦٨.

ولأنه لم يكن سياسيا محترفا، بعكس ما يشيعه البعض عنه فقد أخلص إلى شغفه في تتبع نهر الفرات في مجراه العراقي، لكن من خلال الغناء. فكان أن أضاف إلى معرفته الأصيلة بالغناء البدوي معرفة فريدة من نوعها بالغناء الريفي.وإذا ما كانت أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن "أغاني الجوبي في أعالي الفرات" عام ١٩٨٤ قد قدمته باعتباره منقّبا في تاريخ الروح غرب العراق فإن إخلاص الباحث فيه دفعه إلى أن يمد نظره إلى الجنوب ليلتقط تلك

الأصوات المنداة بهسيس البردي في أهوار الناصرية والعمارة.

سعدي الحديثي يغني. هذه معلومة يمكن التأكد منها بيسر. لم يبخل الرجل بصوته. هناك العشرات من الأغاني العراقية لا يمكن استعادتها إلا من خلال أدائه الممتع. شيء من صوته سيظل راسخا في الأذن العراقية.

لو لم يكن هناك سعدي الحديثي لكنا في حاجة إلى أن نخترع كائنا بجناحين مثله. جناح المعرفة وجناح الموهبة. كان لا بد للقدر أن يجود برجل مثله من أجل أن يحفظ لأمّة، هي على وشك الضياع، غناءها العظيم.

العراقي في كل أحواله

كما أرى، وهي وجهة نظر خاصة يمكن أن تكون محل اختلاف، فإن الحديثي الذي آثر الفن على السياسة، كان قد وضع العراق نصب عينيه. كان شيء من العراق، شيء نفيس في عهدته الشخصية. ولم يكن أمامه سوى أن يكون أمينا في تعامله مع تلك العهدة. لذلك فأن يغنّي المرء شيء، وأن يكون ذلك المرء حامل السر الذي تبوح بين يديه الأغاني بأسرارها هو شيء آخر. كان الحديثي مالك السر. العراقي في كل أحواله الشعورية، معذبا ومسرورا. مترفا وتعيسا. متأنقا ومشردا. غير أنه في كل الأحوال يظل في حالة يقين من أنه كان قد رأى كل شيء.

لم يكن الحديثي يغنّي ليكون مطربا. لم تكن لديه رغبة في أن ينافس المغنيين أو يزيحهم عن مواقعهم. فهو يعرف أن مكانه ليس بينهم. إنه يقيم في مكان آخر. ذلك المكان الذي يمتزج فيه التاريخ بالجغرافيا، لكن من خلال آلة موسيقية تبدو فقيرة في عناصر تكوينها، غير أنها استطاعت أن تختصر كونا من الأسئلة.

لقد فرشت الربابة سجادة أنينها على طرق صحراوية، كانت خيوط الحرير تمد ذرات رملها باللمعان. لم يكن سعدي الحديثي مطربا. هو لا يريد أن يكون ذلك المطرب، غير أن صوته كان أشبه بخيط حرير.

"ما يبقى للعراقيين" ذلك ما أظن أن سعدي الحديثي يفكر فيه اليوم. لرجل حصة كبيرة في ذلك الخزين العاطفي الذي سيحفظ للعراقيين مكانتهم في تاريخ العاطفة البشرية. لقد بذل جهدا استثنائيا في توثيق أغاني شعب، لم يكن يرى في ما يعيشه إلا نوعا من تجليات لحظة الخلق. لذلك لم يكن التواضع من شيمه وهو الذي عبر ببطله جلجامش سياح الحياة بسؤال الخلود.

الأغاني التي وثّقها الحديثي بصوته وكتابته هي مرايا ذلك الصوت الذي اخترق بادية الشام ليصل إلى المتوسط. ومثل الفرات كان الحديثي حشدا من القرى، جمعا من مغنيها. هو فرد قرر في لحظة إلهام غنائي أن يكون الآخر، الذي هو صورة عنه. تقدم محاولة سعدي الحديثي عبقرية العراق في وحدته بطريقة تنسف كل المحاولات التي تسعى إلى تمزيق ذلك البلد الذي كان يستخرج من وتر واحد أصواتا تذكّر بلحظات البركة الأبدية.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني: حيدر الكواز

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

سعدي الحديثي..

لم تعد هناك أغنية رصينة

عبير يونس

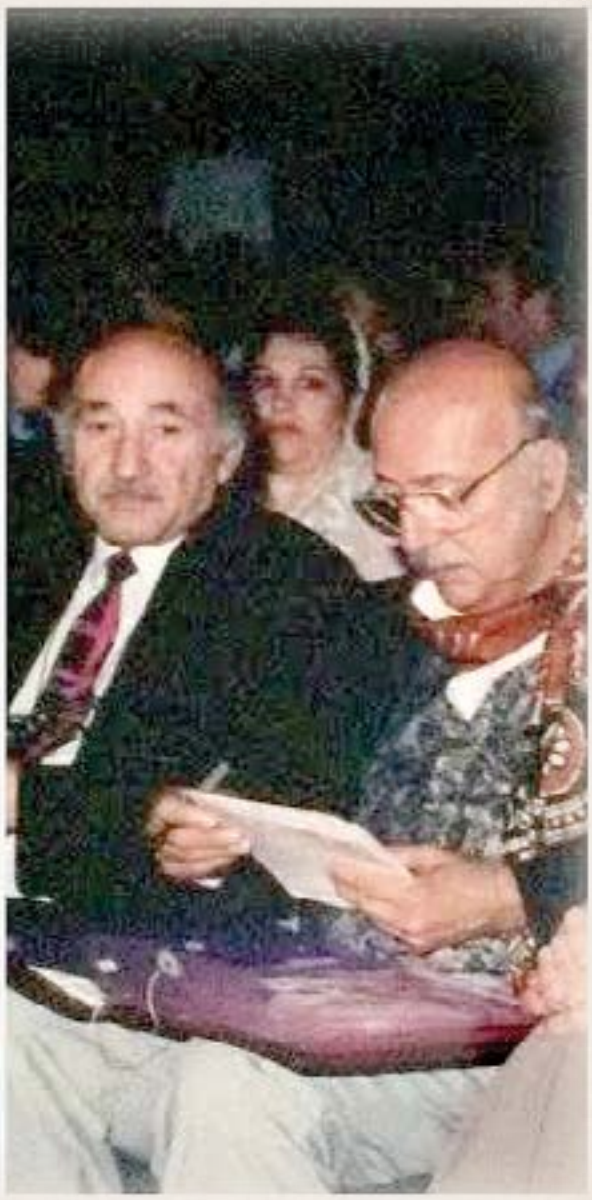

تناول الدكتور سعدي الحديثي الغناء بوصفه حالة ثقافية، وذلك في محاضرته التي ألقاها، في مقر اتحاد كتاب وأدباء الإمارات في أبوظبي، بعنوان » الغناء في الثقافة العربية».

قدم للمحاضرة رئيس مجلس العمل العراقي الدكتور رضا الشهرستاني موضحا أن الدكتور الحديثي من أعلام الثقافة في العراق نال ماجستير في الأدب الانجليزي من بريطانيا، ومن ثم حصل على دكتوراه في اللغة العربية في العام ١٩٨٢ ودَرس في الجامعة الأميركية في الشارقة، وفي جامعات أخرى. استهل د. الحديثي محاضرته حول إن كانت الأغنية ثقافة، مؤكدا: أن الأشكال الثقافية تتجلى في مفاهيم كثيرة منها الشعر والأغنية، فالشعر اشتهر أكثر عن طريق الأغنية التي تنتمي إلى الصوت، وبعض الكلمات لأغنية معينة تعتبر سلوكا لغويا، وفولكلوريا، وقد أكدت إحدى الباحثات بوجود خلايا مستقلة في المخ لاستقبال الموسيقى، وتتداخل هذه الخلايا، مع الخلايا المستقبلة للغة.

وقال د. الحديثي ان الدراسات العلمية قد أثبتت قدم دور الموسيقى في حياة الناس، وفي عوالمهم الكثيرة لقدرتها على خلق المودة والترابط الاجتماعي، وهناك أمثلة كثيرة بهذا الخصوص. وبالنسبة للشعر فالصوت يضيف قيمة كثيرة للشعر، ومع ذلك كانت قيمة المغني محدودة على مر التاريخ. واستشهد د. الحديثي بقصة المغني الشهير إسماعيل الجامع الذي عاش في زمن الخليفة هارون الرشيد، وكيف كان القاضي الذي لا يعرفه يناقشه ويستمتع بحديثه وثقافته، إلى أن عرف في النهاية أنه مغني، فكان هذا سببا كافيا لتغيير تعامله معه.

وتطرق د. سعدي الحديثي إلى تطور الشكل الموسيقي في العالم على الرغم من بطء تطوره في الثقافة العربية، فالغناء تأخر كثيرا ولا يبدو أنه تطور، وذلك لظروف الفترة العثمانية، التي شكلت تيارا غنائيا دون الانغماس كثيرا في الموسيقى، ولم يكن هناك أحد يعرف الموسيقيين ولا يرحب بهم في المجتمعات، وعلاقتهم بهم علاقة ود آنية تتزامن مع وجودهم في مجالس الطرب، حيث تحبهم الناس وتقدم لهم الهدايا المجزية، ولكنهم لا يستمتعون بصداقتهم.

تطور بطيء

تطرق د. سعدي الحديثي إلى تطور الشكل الموسيقي في العالم على الرغم من بطء تطوره في الثقافة العربية، فالغناء تأخر كثيرا ولا يبدو أنه تطور، وذلك لظروف الفترة العثمانية، التي شكلت تيارا غنائيا دون الانغماس كثيرا في الموسيقى، ولم يكن هناك أحد يعرف الموسيقيين ولا يرحب بهم في المجتمعات.

وريث أصيل

سعدي وريث وفيّ ودؤوب لثروة غنائية أصيلة التي يمثلها غناء البادية العراقية، كما تشهد على ذلك مؤلفاته العديدة بدءا من »أغاني الجوبي في اعالي الفرات» حيث كانت اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٨٤ وانتهاء بدراساته ومقالاته ومحاضراته الكثيرة عن الغناء البدوي والشعبي والفولكلور المنشورة وغير المنشورة.

■ ***عن: جريدة البيان الاماراتية***